

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة.....د/ بوعلي نصير

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة

د/ بوعلي نصير

جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة:

تعتبر الصورة أيا كانت ثابتة أو متحركة وسيلة من وسائل الدعاية في لحظات بارزة من التاريخ. فالصور الثابتة (Diapos) على سبيل المثال كانت ولا زالت وسيلة اتصال مفضلة في فترات معينة من التاريخ مثلما كانت في الحرب العالمية الأولى، وفي الثورة المكسيكية وفي ثورة أكتوبر الروسية وفي فترات تغيير مختلفة بالصين. ورغم تعدد وسائل الاتصال اليوم تبقى الصور الثابتة والملصقات ذات تأثير معترف به في عدد كبير من المجتمعات في العالم، وتستخدم في العادة لأغراض سياسية أو اقتصادية أو ثقافية وفي الغالب الأعم تستخدم لأغراض انتخابية.

ولم يعد العالم المعاصر اليوم يعيش مجتمع الصورة بعد مجتمع الصناعية والتقنية (الموجة الثانية على حد قول توفر) فحسب، بل دخل عالما مجتمع التواصل والمعرفة⁽¹⁾ والذكاء الإنساني. هذا المجتمع عمق وظيفة الصورة ومنحها درجة اللغة والثقافة المتميزة عن اللغة والثقافة الأبجدية التي ألفناها وتكونا وتعلمنا بواسطتها.

وهاهي ظاهرة العولمة الاتصالية عبر البث التلفزيوني "الفضائي" المباشر ترفع قوة الصورة إلى أداة العصر وفي كل الميادين: البحث العلمي؛ الأخبار؛ الاتصال؛ الحروب العسكرية؛ التجسس؛ التعليم؛ الإشهار؛ الأزياء؛ العلاقات العامة الخ. إنها شمولية الصورة بكل وأرقى فنون التقديم والاستعراض. فماذا

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د/ بوعلوي نصير

عن تميز لغة الصورة؟ وكيف يمكن فهم آلياتها المتميزة هالة التواصل؟ وهل يمكن فهم ما تملأ الصورة من ثقافة في عصر العولمة؟ ما علاقة الصورة بعالم القيمة؟

لعل أفضل مدخل للإجابة عن هذه التساؤلات هو ضبط المفاهيم الأساسية للدراسة وتمثل هذه المفاهيم في المجالات التالية: مجال الصورة، مجال الترجمة، مجال التأويل ومجال العولمة بالترتيب المنطقي المقصود.

مجال الصورة: الصورة تمثيل وتشخيص لشيء ما أو لكائن ما بالرسم أو بالنحت أو بالتصوير الضوئي⁽²⁾.

والصورة إما مفردة أو متجاوزة مع آخر فتحكي بخطوطها وانحناءاتها، بظلالها وعماتها وبألوانها وتدرجاتها اللامتناهية، كما بتتالي مفرداتها. الصورة تحكي الإنسان لكن بلغة أخرى هي لغة الضوء واللون والظل والخط⁽³⁾.

وإما أن هذه الصورة «صور متحركة» في تواطؤ مع الكاميرا فتحكي حكايات بتوقف عمقها ودوام أثرها على طبيعة أدوات عرضها (projection).

إن مجال الصورة في هذه المداخل هو البعد الرابع في تطور أشكال الصورة (المنقوشة (أي المنحوتة)، المرسومة باليد (التشكيلية)، الفوتوغرافية (أي المأخوذة عن طريق العدسة) فالمتحركة). ويعبر عزي عبد الرحمن عن الصورة المتحركة بأنها الرسالة الثالثة في تطور أنماط الاتصال (المنقول شفها، فالمكتوب، فالمصور)⁽⁴⁾. وهي التي يعبر عنها حاليا في كثير من الأدبيات بعالم «حضارة الصورة». فمجال الصورة في هذه الدراسة إذا هو الصورة المصورة المتحركة التي ترد عبر التلفزيون بمقاس تقني رقمي (52 صورة/ ثانية). مع الإشارة أن المجال التماثلي (analogique) للصورة (25 صورة/ ثانية) أصبح

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د. بوعلمي نصير

كلاسيكيا في ظل انفجار الرقمي.

مجال الترجمة: الترجمة نقل الأفكار والدلالات من لغة إلى لغة أخرى، من ثقافة إلى ثقافة أخرى. يتعلق الأمر هنا بقراءة نص مكتوب في سياق سوسيوثقافي محدد، قصد إعادة كتابته في سياق تاريخي مغاير. اللغتان هنا متقولتان عبر ذاتين مختلفتين (الكاتب والمترجم). ويتوقف ملائمة هذه الترجمة على التأصيل اللغوي والمعرفي، كما تتوقف على المهارة والذكاء والتخصص. وتقع الترجمة بين أداتين مختلفتين هما أداة "النقل" وأداة "العقل". ونكون هكذا أمام إما: تشويه أو مقبولية وإبداع بحسب توفر الشروط السابقة. ونستطيع أن نضرب مثالا هنا عن قضية حضارية لها علاقة بالترجمة. فالعرب ترجموا أدبيات اليونان أيام إسحاق بن حنين، وكان هذا الأخير ذاتا ناقلة (من النقل)، ولكن بعد فترة قصيرة جاء الكندي وبدأ الإبداع في الترجمة وبالتالي الإنتاج الذاتي المستقل عن اليونان. ومع هذا الأخير تحولت الثقافة العربية من كونها ذات ناقلة إلى كونها ذات عارفة وعاقلة (من العقل)⁽⁵⁾. فالترجمة إذا إما تشويه أو مقبولية، وإما نقل غير مستقل أو عقل مستقل.

ينطبق هذا التعريف وهذا المثال على الترجمة من وإلى لغات من نفس الطبيعة. هي اللغات الأبجدية المرسومة التجريدية مهما اختلفت خصائصها وبنياتها. فهل يمكن رؤية الأمر من الزاوية نفسها بالنسبة للغتين مختلفتين من حيث الطبيعة؟ كالترجمة من وإلى المرئية والأبجدية.

إن ترجمة الصورة في هذه المداخلة ترتبط بالمحتوى الظاهر أو الوقوف عند حدود الظاهر من المعنى فيها.

ويتعلق الأمر هنا بقراءة صورة في سياق آخر متميز، كأن ننظر للصورة من

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د/ بوعلي نصير

الناحية التقنية، أو من ناحية قيمية، أو من ناحية جمالية (فنية) الخ. وأعتقد أن الترجمة في هذه الحالة هي مرادفة للتفسير، أي الوقوف عند مبنى الصورة من دون التوغل في المعنى، وعادة ما تكون الصورة من هذه الزاوية كيانا مغلقا. وهذا لا يفيد كثيرا في هذا التناول.

مجال التأويل: التأويل مرحلة تأتي بعد التفسير، أي أن التفسير - كما سبق أن أشرنا - يسبق التأويل، والمقصود لغة واصطلاحاً دون الإخلال بالمتداول السائد. والتأويل في أقصى حالاته، أي بعد كونه تجاوز لخطوط الصرامة التركيبية اللغوية، توليد للمعنى العميق و"الدواخل" الدلالية بغاية تحقيق الانسجام في الفكر والمشاعر والاعتقاد حسب ابن رشد. وخلافا دائما للتفسير فإن التأويل يفترض من ممارسه امتلاك ذاتية فكرية وفنية عالية⁶.

إن مجال التأويل في هذه الدراسة يرتبط، ولو جزئيا، بدلالة الرموز غير اللغوية (أي نوع من التحليل السيميائي البنيوي) للصورة. ومن ثمة نكون مضطرين للانتقال من الصورة إلى الوضع الاجتماعي أو السياسي أو الإيديولوجي. وكذا يسمح مجال التأويل من الانتقال من الصورة كمبنى إلى الصورة كمعنى، ومن الصورة كدال إلى الصورة كمدلول، فالتحليل هنا يستند إلى عقل الدراية ولا يقف عند حدود الرواية⁽⁶⁾.

وعند دراسة الصورة في حد ذاتها بمعزل عن المتلقي، فإن لفظ "الصوري" أكثر انسجاما من لفظ المرئي على حد قول عبد الرحمن عزي، فالصوري من الصورة والمرئي يحصر فعل المتلقي في الرؤية منفصلا عن الشيء المرئي. وفعل الرؤية هنا، يلج بنا إلى نظريات الاستقبال المفسرة لثقافة الصورة، كنظرية الاستخدام والإشباع التي ترتبط فيها الصورة بحاجات ورغبات

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د/ بوعلي نصير

الناس، وفعل المشاهدة هنا يقوم على عنصرين هما المشاهدة الإيجابية وليس السلبية، وعلى المشاهدة التي تقوم على الاختيار الواعي للصورة المرغوب فيها. ونظرية الاعتماد التي تقف على حالات الاستقبال التي فيها يعتمد الناس اعتمادا كلياً على المشاهدة كمصدر للمعلومات والتوجيه، وكذا الحالات التي ينشأ لدى الناس فيها حس بالتسليم عبر اعتمادهم على الصورة خاصة عندما تحدث أحداث اجتماعية وسياسية كبرى ويشعر الناس بالخوف والفجعة حتى ليصبح الإعلام هو مصدر الأمان الوحيد. أما نظرية الجدولة وهي التي تدخل في دراسة الحالات التي ينجح فيها الخطاب الإعلامي إلى فرض جدولة ذهنية مقررّة تجري عبرها برمجة أذهان المشاهدين⁽⁷⁾.

ويتم التركيز هنا على الصورة (كعنصر أساسي) لفرض هذه الجدولة. ولن نخوض في نظريات الاستقبال وهي كثيرة وتخرج عن سياق هذه الدراسة.

أولاً: الصورة وزمن العولمة:

تعتبر أمريكا من دون شك هي سيدة الثقافة البصرية وهي الوطن الأكبر للصورة كإنتاج وكثقافة وكاستهلاك أيضاً. والعالم كله من حول أمريكا هو مضمار عريض للاستقبال. ولكن هل هو استقبال سلبي يؤدي إلى أمركة العالم "من خلال الصورة" ثقافياً وذوقياً وعقلياً؟

إن أمريكا نفسها صورة كبيرة وعميقة وقد كانت في المخيال الذهني للبشر قديماً حينما كان الخيال الأدبي والأسطوري يحلم بجزيرة مفقودة فيها الذهب والنساء والمال والحرية، ثم صارت أمريكا واقعا فعليا لهذه الأحلام من خلال صورتها المنتشرة للاستهلاك الذهني عبر الأفلام والتلفزيون، صورة نابضة ومغرية ومتوهجة.

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د/ بوعلمي نصير

إن قراءة الصورة في ظل العولمة يحمل دلالات كثيرة، فكثيرا ما نسمح ونقرأ عن هذه المفاهيم المقترنة بعالم الصورة، قول البعض مثلاً: ديكتاتورية الصورة، والبعض الآخر يتحدث عن ديمقراطية الصورة، سلطة الصورة وهكذا.

فقد وظفت الصورة في تحريك الشعوب وفي التأثير على رجال السياسة، وفي توظيفها كأداة في مصلحة بعضهم ضد البعض الآخر، كما يحدث الآن في حرب الخليج، وسبق أن حدث إبان حرب الخليج الثانية (شتاء 1991)، وكذلك في الأزمات المتكررة بين واشنطن وبغداد (سنة 1998). وهناك أمثلة أخرى عديدة: ما حدث في تشيموشاورا وإسقاط نظام تشاوشيسكو. إجهاض انقلاب ياناييف في الاتحاد السوفياتي سابقاً، ومؤخراً في أوكرانيا... في هذه الأمثلة كانت الصورة عبر البث المباشر تشكل الحدث السياسي، تحوله وتغير مساراته ضمن عوامل أخرى داخلية ودولية بل كانت الصياغة الإعلامية للحدث هي الأكثر تأثيراً وتحريكاً وكانت "بلاغة" الصورة تمثل بشائر زمن من العالم الجديد.

إذن، نحن في زمن اللحظة الإعلامية ومجريات واقعها المتمحور حول الصورة. ولعل أخطر ما في هذا الزمن هو الآفاق التي تحملها لنا التحولات التي تحدث بنا، ومن حولنا خاصة بعدما أصبحت الصورة، أياها، تتمثل ليس فقط المصدر الأقوى لتشكيل الوعي والذوق والوجدان عبر إمكانياتها الفاعلة في إنتاج وصناعة القيم والرموز، ولكن أيضاً المادة الثقافية الأساس التي يجري تسويقها على أوسع نطاق جماهيري من خلال تطور النجاحات الخاصة بتوظيف الصورة في هذا العصر.

يكفي أن نتأمل، كيف بات في الإمكان أن يفيض مجال توزيع الصورة

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د/ بوعلي نصير
(كمنتج مرئي، وكمادة ثقافية وسلعة تسويقية) عن حدود مجال إنتاجها (المحلي
أو الوطني).

يكفي أن نتأمل، أيضا، كيف أن الصورة (أو التعبير المرئي المتمحور
حول الصورة) أصبح يلعب الدور نفسه الذي لعبته - من قبل - الكلمة المكتوبة
بالنسبة إلى ثقافة المجتمع. فالكلمة المكتوبة مع ظهور الطباعة أصبحت
جماهيرية وولدت فيما بعد فلسفة تسمى بالفلسفة التنويرية وفي الختام كانت
الكتابة المطبوعة سببا غير مباشر في اندلاع الثورة الفرنسية وكانت الثقافة
الأبجدية سببا مباشرا في سقوط الإقطاعية وحكم النبلاء...

إن الدور الذي تلعبه الصورة الآن أعمق من الدور الذي لعبته الكتابة في
وقت مضى على اعتبار أن الصورة تخاطب القلب والوجدان وتلج عن طريق
حاسة البصر.

بينما الكتابة تخاطب العقل وتستخدم حاسة البصر كواسطة فقط بين
المكتوب والعقل الذي يعمل على فك الرموز التجريدية. لذلك غالبا ما يقال
عن عمل فكري علمي بأنه مقنع بدقته ووضوحه وتماسك بنيته الدلالية، بينما
يقال عن منتج بصري بأنه مؤثر ومبهر ويمسك المتفرج ويسافر به بعيدا إلى
عالمه الخاص. وخطورة الصورة من هذه الزاوية أنها جماهيرية وبذلك فهي
تعمل على تسارع التاريخ بينما الكتابة فهي نخبوية (خاصة بالفئات المتعلمة
فقط) وتسارع التاريخ فيها يكون بطيئا في غالب الأحيان.

ثانيا: الصورة وعالم القيمة:

يتناول هذا المحور من المداخلة علاقة الصورة التلفزيونية المصورة (أو
المصنعة) بعالم القيمة. ولا يقصد بالقيمة هنا، تلك القيم المتداولة في الممارسة

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د/ بوعلي نصير

الإعلامية، كأن نقول القيم الإعلامية الإخبارية في المجتمع الليبرالي، أو القيم الاشتراكية أو قيم الإثارة الخ. وهي القيم التي تفرزها وسائل الإعلام أو تركز عليها لتحقيق بعض أهدافها.

يقصد بالقيمة هنا (جمع قيم) تلك التي مصدرها الدين. ولذلك ستسعى هذه المداخلة في معرفة العلاقة بين الصورة والقيم التي مصدرها الدين. ولن نخرج هنا إلى تلك الأحكام الدينية، كأن نقول أن هذه الصورة حلال أو حرام، وأنها مباحة أو غير مباحة، وأنها تجوز دينيا أو لا تجوز. تلك مسألة أخرى وهي تتعلق بالقضايا الشرعية والفقهية ونحن لسنا من أهل الاختصاص.

وتعتمد الدراسة في هذا الجانب على نظرية المفكر الجزائري عبد الرحمن عزي من خلال إحدى أطروحاته "الإعلام والحتمية القيمة".

يقول عزي عبد الرحمن: «إن التأثير يكون إيجابيا إذا كانت المحتويات الإعلامية وثيقة الصلة بالقيم. وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا. وبالمقابل يكون التأثير سلبيا إذا كانت المحتويات لا تتقيد بأي قيمة أو تتناقض مع القيمة، وكلما كان الابتعاد عن القيمة أكبر كان التأثير السلبي أكثر»⁽⁸⁾.

من هذه الزاوية نستطيع القول مجازا أن الصورة التلفزيونية (كمحتوى إعلامي) إذا ما اقترنت بعالم القيمة يكون تأثيرها إيجابيا. وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا أكثر. وبالمقابل يكون تأثير الصورة سلبيا إذا لم تتقيد بأي قيمة أو تتناقض مع القيمة. وكلما كان ابتعاد الصورة عن القيمة أكبر كان التأثير السلبي أكثر. وهكذا يتم التعرف على الصورة (ولو ظاهريا) انطلاقا من هذا التضاد الثنائي (Opposition Primaire). فدراسة الصورة من هذه الزاوية هو في الحقيقة البحث عن العلاقة الترابطية بين القيم (اقتربا أو ابتعادا) والصورة.

الصورة: الترجمة والتأويل الحضاري في ظل العولمة..... د. بوعلي نصير

فتكون الصورة حينئذ دالة قيميا أو غير دالة قيميا.

إن عالم القيمة (مصدرها الدين) الذي يتجلى في الصورة التلفزيونية يتخذ عدة أشكال⁽⁹⁾. يمكن الإشارة إلى اللباس الذي يظهر في الصورة كمثال. فاللباس صورة ثقافية لها معانيها ودلالاتها وهو نص قابل للتأويل مثلما هو معرض لسوء الفهم وسوء التأويل بقدر ما هو مفهوم ومدرك، وقد يكون لعبة إيديولوجية أو مادة لصراع الأفكار وهذا حادث فعلا الآن كما سنرى.

عندما تحجبت مذيعة قناة الجزيرة خديجة بن قنة التي اشتهر وجهها واسمها بوصفها إحدى المقدمات الأنثى والمتمكنات وتتولى تقديم الأخبار في تلك القناة، كان لتحجبها وقع إعلامي كبير لدى الجماهير العربية. فهذه المذيعة غيرت أولا من شروط الصورة التلفزيونية المألوفة من قبل، وبالتالي غيرت من شروط اللعبة الإعلامية التلفزيونية في المظهر والملبس. فاقتران الصورة هنا بهذه القيمة الدينية (الزي الإسلامي) معناه أن الصورة أصبحت ذات دلالة وتحمل أو تروج لقضية حضارية وفق خيارات الناس ومقاسات أذواقهم ودقيق تصوراتهم الدينية والثقافية.

فاللباس في هذه الحالة يتحول من كونه فعلا عاديا إلى أن يصبح علامة ذات دلالة مركبة. والصورة لغة تتكون من دال هو شكل الملبس والمدلول هو المعنى الذي تربطه مع ذلك اللباس المعين، والمدلول هنا يؤول إيجابيا كما يفسر سلبيا، حسب تقارب أو تباعد الصورة مع القيمة.

الهوامش:

(1) يطلق على هذا المجتمع تسميات كثيرة: المجتمع الإعلامي، المجتمع الاتصالي، مجتمع المعلومات، مجتمع ما بعد التصنيع، ما بعد الرأسمالية، مجتمع ما بعد الحداثة، الموجة الثالثة على حد قول ألفين توفلر، أو الثورة الخامسة للاتصال.

(2) Petit Larousse, imprimé en France, (les presses des imprimeries Herissey rerdy et aurey), Mai 1986.

(3) بيير بابان، لغة وثقافة وسائل الاتصال، ترجمة إدريس القري، منشورات الفرابي، 1995، ص: 181.

(4) أنظر: عزي عبد الرحمن، الإعلام والبعد الثقافي: من القيمي إلى المرئي، دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي (28)، بيروت، ديسمبر 2003، ص: 124.

(5) نصير بوعلي، الإعلام والقيم، قراءة في نظرية المفكر الجزائري عبد الرحمن عزي، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص: 23.

* الذاتية الفكرية: هي دليل امتلاك رأي ورؤية مسنودة بالمعرفة والتجربة.

** الذاتية الفنية: تمثل القدرة على صياغة هذا الرأي وهذه الرؤية بوضوح وانسجام وتماسك وتناغم.

(6) ورد في الأثر قول أحدهم: إذا رويتم خبرا فأعقلوه عقل دراية لا عقل رواية.

(7) عبد الله الغدامي، الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2004، ص: 16/15.

(8) عزى عبد الرحمن، الثقافة وحمية الاتصال، نظرة قيمية، المستقبل العربي، السنة 26، العدد 295، أوت/ سبتمبر 2003.

(9) على سبيل المثال: الكلام كشكل من الأشكال فيه الطيب من الخبيث.

(10) Petit Larousse, imprimé en France, les presses des imprimeries Hachette, Paris, 1980.

(11) 181: 2001، في اللغة.

(12) 181: 2001، في اللغة.

(13) 181: 2001، في اللغة.

(14) 181: 2001، في اللغة.

(15) 181: 2001، في اللغة.

(16) 181: 2001، في اللغة.